عودتها من سبيل ؟! على الأقل هى تعزية للنفس عن ألم التجربة ، أو هى إغفاءة مؤقتة كفيلة بأن تنسيه ما يدبر له من أمر الموت ، وما قد ينتظره من مواجهة قطعية للمصير ، فهو التحايل علي إبقاء الحياة إن أمكن ذلك ، وهو التشبث بصور الماضى من خلال ذكريات يرددها ، ربما أسهمت فى التخفيف عنه نفسيا ، وربما أنقذته من مهانة الاستغراق الكامل فى هول الخطب الذي أحاط به من كل جانب ، ومن تلك الرموز ما استوقفه من :

صحبة الرفاق / نحر المطايا / سبأ الزق / ضوء النار للأضياف / موقفه بين القيان يصدع الرداء ... الخ .

وكأنما قصد من وراء ذلك الإبانة عن موقفه الاجتماعى بين أقرانه وضيوفه ، ثم بين ندمائه وجواريه فى زحام مجالس المنادمة بين عبث السكارى وعربدة المخمورين .

وتستبد به مشاهد الماضى من خلال هذه المستوى الفردى إلى مستوى آخر قَبَلى حين يستعيد ذكريات حياته القبلية من خلال ما تستحضره الذاكرة الصوتية لديه من «نشيد الرعاء المعزبين المتاليا » على حد تصويره .

وكأنما بلور وجدانه من خلال وجدان جماعته التى انفصل عنها حين أسره خصومه ، وبقى له منها أن يتوحَّد معها - فقط - عبر قياسات الماضى فحسب ، مما يدفعه إلى حزن وأسى غامر حين تلح على ذاكرته آلام لحظة الأسر ، وإن كان يتعزَّى بعدم فراره منه ، ولو أراده لاستطاع ، ولكنه أبى ذلك ، فأني له القرار وهو سيد القوم وقائدهم :

ولو شئت نجتّنى من الخيل نَهْـــدَةٌ تَرَى خلفها الحُوَّ الجياد تواليـــــا

وتتوزع مواقف الشاعر الأسير بين ذكريات ماضيه وآلام واقعه ، فلا يجد أمامه من كلٍّ إلا ما يحزنه ويبكيه ، خاصة بعد أن وجد نفسه موطنا للسخرية ومجالا لاستهزاء السجانة به :

وتضحك منى شيخة عبشميـــــة كأنْ لم تَرَنْ قبلى أسيراً يمانيـــــا

وكأن هذه السخرية كانت دافعا آخر وراء فخره الفردى والقبلى معاً ، وكأنما أراد أن يسجل لها وللقوم أبعاد مكانته ، إن كانوا يجهلونها ، وكأنما راح يجدّ فى البحث عن صيغة من صيغ التوازن الذاتى بين ألم المصاب والضعف وبين تمثل حالة القوة والسطوة ، تلك التى يستمدها من أعماق ذلك الماضى بكل ذكرياته ، حيث يتحول الفخر هنا إلى باب من ابواب